باب التربية والتعليم

﴿أميل القرن التاسع عشر﴾

(٢) من ارلسم الى هيلانة في ١١ أغسطس سنة ١٨٥٠

اعلمي ان تربية الطفل في الاسبوعين الاولين من حياته بل يصح ان أقول في الشهرين الاولين منها تكاد تنحصر في مجرد وقايته مما عساه يؤذيه من المؤثرات الخارجية فهي ترجع الى نوع من انتظار الفطرة ومراقبتها في عملها واعانتها عليه عند الحاجة

ان المولود يدخل عند ولادته فيما اصطلح علماء وظائف الاعضاء على تسميته بالحياة المستقلة ولكن ما أضعف استقلاله وأقل حريته فانه بما أودع فيه من غريزة التغذي لا يكاد يرى الا ملتقماً ثدي أمه فتكون معه كالمضمن المطعم بآخر فهو اذن تابع لغيره فقير اليه في غذائه وسد حاجات معيشته المادية وما أخفى معنى الانسانية فيه وأبهمه وهو في هذا الطور من الحياة فانه لما كان مغموراً في سحابة من الجهالة لم يكن فيه أول أمره على ما يرى من حاله أدنى ادراك ظاهر لما يضطرب حوله من الاشياء . مسكين ذلك المولود الاعمى فانه لا يجد ثدي أمه الا بتلمسه نعم ان له عينين لكنه لا يبصر بهما وأذنين غير انه لا يسمع بهما ويدين الا انه لما يتيسر له ان يبطش بهما . هذا المولود الذي هو وثن لامه تعبده وتخصه بفرط محبتها قريب الشبه بالآلهة (١) الزمني الذين سخرت منهم التوراة لكنه على مافيه من الضعف

(١) لعل هؤلاء الآلهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما اراد ان يتحدي امته بقبول الله قربانه اذ طلب اليهم ان يقربوا ثورا لالههم ويقرب هو آخر

والعجز قد خلقت له وظيفة مهمة يؤديها في العالم ألا وهي النمو

فوظيفة الام تكاد تنتهي الى عدم اعاقة هذا العمل الفطري الخفي والتحرز من تشويشه واني طالما أعجبت بما تهديه اليها في ذلك انثى الطير من الاسوة الحسنة فانها لشدة ما تعتني بحجب ذخرها الحي عن دنس الانظار وتبالغ في اخفائه بعشها المستتر تحت أغصان الاشجار والمرأة أقل منها دراية بما يجب للاولاد لانا كثيراً ما نراها تتخذ مولودها أعوبة لشفقتها وحنانها. وماذا نقول في أمهات ما ينفككن يرين الاجانب اولادهن فيدربهم من يد الى يد ويهجن انفعالاتهم بما يتصنعنه لهم من الحركات والاشارات ويعذبنهم بالملاطفات المنبعثة عن جنون الشغف بهم. أقول قولا لا أود منك اذاعته وهو اني أخشى انهن في ذلك ينظرن الى تسليتهن أو الى زهوهن أكثر من نظرهن الى مصلحة الطفل

والحذر الحذر ايضاً من بعض الاوهام الشعرية فان شعراء هذا العصر وكتابه قد بالغوا في اطراء الطفل فانهم قد حبب اليهم الخيال ان يروا فيه ملكا نزل من الجنة تاركا فيها جناحيه. اني في الحقيقة لا أعرف من اين اتى ولكن رأيي فيه هو انه اذا كان تدرأى عجائب في عالم آخر فقد ابذكر منها شيئا وانه انما يحصل علومه جميعها بيننا. وسأبين لك في الرسالة التالية كيف يحصل هذه العلوم. اه

(٣) من ارا سم الى هيلانه في ١٢ أغسطس سنة ـ ١٨٥

ان أول زمن في حياتنا نكبون فيه أكثر تعلماً وأشد تحصيلا هو ذلك

لا لهه ليظهر اى الآلهة يقبل قربان عباده فقربوا ثورهم ودعوا بعلا الههم من الصباح الى الظهر لينزل نارا ذكله فلم يجبهم فسخر منهم نبي الله وقال نابروا على الدعاء فلعله نائم

الزمن الذي لا يلمنا القائمون علينا فيه شيئاً تعليماً نظامياً فجميع الامهات يعرفن ان الطفل يترقى في تحصيل العلوم من الشهرين الاولين من حياته الى ان يبلغ ستة اشهر ترقياً غير معهود في هذا السن وقد حسب له بعض علماء وظائف الاعضاء ما يكتسبه من العلوم وهو في سن شهرين الى ان يبلغ سنتين او ثلاثا من عمره فوجد انه يكتسب منها ثلث ما يكتفي بتحصيله اوساط الناس فأنى له هذه التربية الاولى ؟ نعم انه لا ينكر ان لامه دخلا فيها ولكن اخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملامسته لما يحيط به من الاشياء وتناول مشاعره اياها فهذا الينبوع الاصلي من ينابيع العلم الانساني واعني به الاحتكاك بالاشياء وتناولها بالحواس هو الذي اريد توجيه فكرك اليه

ولننظر ابتداء الى ما يجري في الواقع . فالمولود في مدة الاسابيع الاولى من ولادته يكون عمله لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه المعدة لمعيشة الاختلاط بما حوله في نهاية العجز عن اجابة داعي ما يحتف به من الاشياء اجابة يكون من ورائها عمل فانه يرى جميع هذه الاشياء كانها شفق فلا يميز منها شيأ ويسهل لك الاقتناع بذلك ما ترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خموده كمثل صنم ممنون [1] يكون ساكتاً فاذا انصبت عليه أشعة الشمس جعل يصوت كما تعلمينه. هذا هو شأن الطفل فانه ينتعش بما حوله

(١) ممنون في اساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تيثون ملك الحبشة وهو ايضا اسم لتمثال معبود مصري كانوا يعبدونه في طيبة وكان صنعه على طريقة علمية بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع لصوت شيء من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس

انتعاش ذلك الصنم بالشمس ان سعى هذا انتعاشا

هل يتعلم المولود الابصار والسماع أم بأتيانه عفواً ؟ تلك مسئلة صعب كثيراً على المشتغلين بعلم وظائف الاعضاء الاتفاق على الاجابة عنها فلهم فيها أقوال مختلفة ولكن الذي أجمعوا عليه ان المولود يتعلم بالتمرين اجادة هذين الفعلين فليكفنا ذلك من جواب هذه المسئلة والحكمة في هذا انه من السنن الالهية ان كل عضو يحسن عمل ما واظب عليه وفوق ذلك فان قوة الانفعالات عند الطفل تزداد يوماً فيوماً عما يجده من اللذة في استخدام ما أوتيه من وسائل العلم الصغرى فقد قال بسويه (١) ان لذة الاحساس قوية جداً

الاحساس في الغالب يحصل في المولودين عفواً من غير معاناة تعليم فلا يحتاج معظمهم الى تعلم اللمس والذوق والابصار والسماع بل انهم يجدون فيها وهبهم الله من الغرائز ما يلزم من القوة لاجراء هذه الافعال التي هي من مقتضيات الحياة ولكن أليس من الميسور ان تعاون الفطرة على أدائها بل أقول أليس في قوة اقتداء الطفل بغيره ومنافسته اياه وفي تخيله الاشياء المحيطة به لتزداد رونقا يستلفت نظره اليها ما يساعد على تنبيه مشاعره ودفعها الى اجراء ما خلقت لاجله ؟ اننا نرى في البهائم ان انثاها لا تكف عن ارشاد صغارها الى استخدام حاستي السمع والبصر وحملها على الانتفاع بهما وهذا الارشاد هو السبب على ما أرى فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض

(١) بسويه هو جاك بينيني بسويه المولود في ديجون سنة ١٦٢٧ والمتوفى سنة ١٧٠٤ كان أسقفا لكندوم ثم موتم صار مربيا لولي عهد لويز الرابع عشر وهو من أكبر كتاب فرنسا واعظم واعظ نبغ فيها

الفصائل الحيوانية

كذلك المتوحش كما تعلمين يكاد يكون نصيبه من التربية قاصراً على المشاعر ولشد ما برز علينا بهذا السبب في بعض القوى. فالمادة والرياضة البدنية وطريقة المعيشة تنمي في الاجيال البدوية جملة أنواع من الادراك خارقة للعادة في دقتها وسعتها. واذا سأل سائل عن سبب فقد الانسان بعض هذه المواهب الاصلية بتمدنه اكتفينا في الجواب عن ذلك بتوجيه نظره الى ما حصل في بعض أنواع الحيوان من ضروب التغير عند انتقالها من حالة التوحش الى حالة الاستئناس فمن ذا الذي كان يظن ان الارانب اذا تربت في خابية نسيت بعد ثلاث بطون طريقة احتفار الاجحار للسكنى بها وهذا الخروف نفسه الذي نعتبره مثالا للذل وسلاسة القياد والغباوة لم يكن كما نراه اليوم في جميع الازمان فان أصله الذي تولد منه وهو الكبش الوحشي على عكسه في الطباع لانه حيوان جريء يزهى بالمخاطرة بنفسه في جبال قورصه [1] ويقاوم من يبتغي صيده من الصيادين فجعله الانسان خروفاً أهلياً بزربه أي ببناء زريبة له وتوظيف راع للقيام عليه وكلاب لحراسته

كذلك الانسان كلما تهذبت أخلاقه بالتمدن وتحضر تدرج في التخلي عن بعض خواص معيشته الوحشية فأي حاجة تبقى له في أن يكون دائم التيقظ للمحافظة على نفسه اذا كان غيره يسهر لحفظه وكلاءته فمراقبة الحيوان المؤذي من بعيد والصاق الاذن بالارض لمعرفة خطأ العدو من بعد أنفي

(١) قورصه جزيرة بالبحر الابيض المتوسط وهي احدى مقاطعات فرنسا على بعد ٢٧٠ كيلو متر من شواطئها

أو ثلاثة آلاف ميل لا ضرورة لهما الا في حق سكان أمريكا وأوستراليا الاصليين أما نحن ففي خالتنا العمرانية ما يغنينا عن ذلك فان لنا الشرطي والجندي اللذين نستأجرهما ليدفعا عنا ما نخشاه من أذى المعتدين وكيد الخائنين فاذا زال الخطر الملازم للعيشة البدوية بالتحضر وجب حتما ان يزول معه ما كان لحاستي السمع والبصر من الدقة العجيبة التي هي عون وجدان المحافظة على النفس

كأني بك تقولين ان هذه المزايا الجسدية لم تكن شيئاً مذكوراً في جانب القوى التي خلقها الانسان في نفسه بارتقاء التمدن ان صح ان ينسب له الخلق وأنا بلا شك موافق لك في هذا فاننا والحق يقال قد ربحنا من الحضارة أكثر مما خسرنا ولكن هيهات ان يقنعني هذا الفكر لاني أرى انه كان يجب على الانسان في العصر الحاضر ان يستجمع في شخصه جميع المواهب التي كانت لمن عمروا الارض من قبله . وكوني على يقين من اننا لو بلغنا هذه الغاية ما عد ذلك منا إفراطاً في الغنى ولا وصلنا في الحياة مطلقاً الى درجة تكفي لان نمثل فيها كل ما من شأنه ان يحيي وان قوى الادراك الحسية تكاد تكون في لزومها لفهم معنى وجودنا مساوية للقوى الفكرية

أما كون التمدن يزيد الثقة في المعاملات بين الناس ويقوي روابطهم الاجتماعية ويغالب على الدوام العوامل الفطرية مغالبة يقل بها جداً عدد البلايا التي تجعل البدوي على خطر من حياته فهذا كله في غاية الحسن وأما كون الشرطة تحفظ الارواح والاموال فهذا أمر لا أجد مساغاً للطعن فيه وانما كل الذي آسف عليه من ذلك هو ان طريقة الحفظ هذه تصير مدعاة

كسل وخمود لمشاعرنا وقد ادركت ذلك الامم المتمدنة انفسها تمام الادراك فانها قد ابقت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها ادنى موجب ان لم تكن قد اعتبرتها من وسائل احياء قوى الفطرة الاصلية وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلا. ولو ان رجالا تلاكموا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم الى المحاكمة مع انهم لم يفعلوا الا ما يفعله الملاكمون من شبابنا في ملاعبهم الرياضية (محال الجنباز). اني ارى ما لم اكن مخطئاً ان الترقي في مجموع الآلات التي نستخدمها لسد حاجاتنا لا بد أنه يستتبع زيادة التكلف في استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا والا لاصبح الانسان عما قليل بسبب احلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيها بباشا غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة[1] فلا بد لمنع تطرق الفساد الى النسل من انهماك الناشئين في كل انواع الالعاب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ قوة الجسم ولولا هذه الالعاب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سببا في انحطاط الدولاب[2] الانساني من عرش سيادته

العلم أيضا يفرغ جهده وينفذ مهارته وحذقه في تكميل نقص اعضائنا بما يوجده لها من طرق المساعدة في اداء وظائفها واني لكثير الاعجاب بجميع الناس باكتشاف المنظار المقرب أو المرقب (التلسكوب) لانه جم الفوائد ولكن المتوحش الامريكي ذا الجلد الاحمر لا يحتاج في اكتشاف نقطة فوق الافق الى شيء يطيل به بصره سوى ما استقر فيه من الاعتياد على ارسال

(١) ليتأمل القاريء اعتقاد علماء الافرنج في أعاظم رجال الشرق (الباشاوات) وليحكم فيه بانصاف (٢) المراد بالدولاب الانساني جسم الانسان بما فيه من الاعضاء والقوى فانه شبيه به

أشعة بصره المجرد لتنفذ في المسافات السحيقة وتأتي اليه بصور مافيها من الاشياء . أليس في اعانة المشاعر بالآلات على القيام بوظائفها رفع جزء من مئنة الانسان بفطرته التي قضت بأن يفوق الوحشي المتمدن ولو من بعض الوجوه واني لاأريد بهذا (كما لا يخفى عليك) وجوب الاستغناء مطلقاً عن مكتشفات العلم والصناعة وانما أريد به أن لا تتخذ مزايا المدنية ذريعة الى انشاء الطفل المتمدن مترفاً جباناً قصير النظر وانه سيؤول أمره الى ذلك اذا اعتاد الاعتماد في كل شؤونه على ترقي وسائلنا الصناعية ولم يجعل لنفسه وقوة أعضائه نصيباً من ارتكانه عليهما

ألا توجد طريقة لاسترجاع جزء من الخواص الاصليه التي أضاعها منا الانغماس في التمدن ؟ قد يوجد لذلك سبيل فكثيراً ما فكرت في الوظيفة العمرانية للاصناف الانسانية التي نعتبرها أحط من صنفنا لوقوفها عند أخلاق الطفولية وسألت نفسي غير مرة عما اذا لم تكن هذه الاصناف معدة لسد خلل فينا وهو النقصان الذي يحول بيننا وبين حالتنا الفطرية

الصنف الاسود في كثير من ولايات أمريكا الجنوبية هو الذي يعهد اليه خاصة بتربية مولودي الصنف الابيض فنساؤه مراضع بارعات لهؤلاء المولودين والرجال يمرنونهم على حسن النظر والسمع ولذلك كانت تربية الاحداث الامريكيين أوفق لمقتضى العقل بكثير من التربية عندنا فان المربين هناك يجتهدون في أن يعطوا الأطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا على ان التعبير بالاعطاء هنا خطأ لان التربية لا تعطي شيئاً للطفل وانما تنمي ما هو موجود فيه فكم من القوى الجسدية التي لا يشك في وجودها فيه تبقى كامنة بمجرد اغفال استعمالها

نعم ان مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار في السن متأنقين لا تخلو من منبهات للمشاعر ولكن هل تلائم أنديتنا وزخرفنا حالة الطفل الملائمة المطلوبة ؟ كلا فانه يولد محباً للاستطلاع مقلداً لما يراه ففي ايجاده في مثل هذه الاندية جذب له الى أذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه وقلما يكتسب من يتربى من الاطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد فأنا أفضل كثيراً أن يتربى أميل في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويصل الى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعاتنا شيئاً من صورته

جميع المشتغلين بوظائف الاعضاء معترفون بما لتربية المشاعر من الاهمية بل ان بعضهم قد أوصى باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر ولكني لا أخفي عنك ان مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تعتني بها كثيراً فان كل ما يفكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه فالواجب على ما أرى أن يعتمد في تنبيه طرق الاحساس لهذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويجذبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية . والام هي التي من وظائفها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الاصوات والاشكال والالوان والروائح والطعوم وتنويع هذه الانفعالات وتدريجها فعليها أن تجري في ذلك حسب مقتضيات الاحوال والعالم الخارجي لا يقتضي سوى الولوج الى نفس الطفل من طريق مشاعره فيكفي في ذلك أن يبقى هذا الطريق مفتوحاً مع تنبيهه عند مسيس الحاجة الى ما يستحق التنبيه

القوى الجسدية والقوى النفسية وان كانت متمايزة منفصلا بعضها عن بعض الا ان بينها رابطة تربطها فان صحة أنواع التصورات ليست بمعزل عن صحة التصديقات وان الذهن بما يتمثل فيه من صور المدركات يهيء مواد

الفكر فيجب أن تكون تربية المشاعر ابتداء مقصودا بها تربية العقل اه

﴿ مدرسة زعزوع بك للبنين ﴾

أنشأ سيد أحمد بك زعزوع مدرسة في بني سويف ففرح المسلمون بذلك واستبشروا بهذا العمل الشريف والخدمة الاسلامية الجليلة ولما تبين انه جعل لاكابر رجال الحكومة في بلدها حق النظر في ادارتها ظن بعض الناس ان هذا يحول دون التربية الاسلامية التي يجب أن تقرن بالتعليم لاجل بث روح التهذيب الملي في النشء الجديد وأنشأ بعض المتبجحين بالوطنية أو انتقاد الحكومة ومعارفها مدرسة وبشر الناس بأن سيكون امتيازها على سائر المدارس بالتوسع بتعليم الدين والتربية الوطنية فتوهم الذين يعتقدون الكمال بكل من ينتقد الحكومة ان هذه المدرسة هي ضالة الامة المنشودة فاخطأ الظن وضل الوهم في المدرستين وتبين بالاختبار ان مدرسة زعزوع بك منبع الحياة الملية فالتلامذة يتلقون القرآن الكريم مع تفسيره اجمالا فما بالك بسائر العلوم الدينية ويصلون في المدرسة أجمعين وليس في المدرسة الوطنية التي أشرنا اليها شيء من هذا . مدرسة زعزوع بك اختبرتها بنفسي مرتين والمدرسة الوطنية الاخرى علمت ممن يوثق به من أهلها ان التلامذة لا يلزمون فيها بالصلاة ولها دون مدارس الحكومة في تعليم الدين . وانما قلنا هذا لان الثناء بالصدق والانتقاد بالحق من أعظم أسباب الترقي والكمال

لا خلاف بين العقلاء في ان العناية بالتربية أهم من العناية بالتعليم لان الذي يتعلم ولا يتربى ربما يضر بعلمه أكثر مما ينفع وينتفع وقد رأيت من العناية بالتربية في مدرسة زعزوع بك ما ملأ قلبي سرورا ورجاء بحسن